إلى سبعة مسكّنات... إلى سبعة أحلام

□ أسعد الصفطاوي

(مناجاة إلى رفاقه في فترة توقيفه شهرين من قبل حركة حماس إثر التحرك الشبابيّ في آذار ٢٠١١)

كانت الجولةُ الأخيرةُ التي قطّرتنا جميعًا، فصرنا موؤودين من المدن، وحُفاةً من الأرض، وعُراةً من الفرح، متعبةً جداً وها أنا الآن، بعد انتهاء هذه الجولة، آتي لأقصَّ حكاياتكم، لأروي عطشي إلى الكتابة

كنتُ أعرفُ أنني سآتي اليومَ لأكتبَ ما أكتب، من غير أن أعرفَ ما سأكتب وكنتُ، وأنا أضع عنوانَ هذه التدوينة، أعدُّكم واحدًا واحدًا. كنتم إلى جانبي، وكنتُ إلى جانبكم، في الشهرين اللذين انقضيا وكانا من أصعب الأوقات التي مررتُ بها. كنتُ تائهًا بينَ الفشل والنجاح، بين كميّة الإشاعات الهائلة التي أحاطتني/نا، بين كميّة التردّي التي ولّدها لديَّ جهازُ الأمن الداخليّ التابع لحكومة «حماس» في غزّة، بين كميّة الملل والبحث عن عمل، قلّة المال والحال، وقلّة المكيال والمقدار، بين كمّية الأشياء التي تولّدها هذه المدينةُ اللعينةُ التي أحبّها والتي أشعرُ بإصابةٍ بالغة في عاداتي التي لا تستطيعُ أن تتقبّل كيف تعيشُ خارجها.

كان فيلمًا مملاً جداً، يخلو من أيّ نوعٍ من الدراما أو التكنيك المختلف. كنّا مُخدَّرين، ولا نقوى على فعلِ أيّ شيء. وكانت كلُّ محاولات الانتشال تبدو باهتةً وسرعان ما تتلاشى مع عنصر المدينة القاتلة التي تسكُننا اليوم. وأشعرُ بأنني بتُّ قادرًا على كتابةِ ما أكتبه الآن، فأنا لا زلتُ على قيد الحُبّ، على قيد الأمل، على قيدِ الحياة

اليومَ، إذ أنظرُ إليكم من حولي وأنتم تَتْكّونَ الرملَ من بين أصابعكم، وتفركون الوقتَ بين سبّابتكم وإبهامكم، اليومَ، وأنا أراكم تنظرون إلى أنفسكم في المرايا، بعد أن حاول الكثيرونَ تحطيمَ مراياكم، أدشّنُ هذا الصرحَ المكتوبَ هنا كي يُذكّرني بأنكم لم تتخلّوْا عني، ولم نتخلّ عن أنفسنا، ولم أتخلّ عنكم، في الوقت الذي رحل عنّا الكثيرون، لأنّ ايمانًا لا يُحرّكهم ـ وأنا أعرفُ جيّدًا أنّ الذي يدفعُكم دومًا إلى الحياة إيمانٌ: أنتم تزرعونهُ، أنتم تَسْقونه، وأنتم تراقبونه يكبُر، وأنتم تقطفونه

أنتم الايمانُ الذي أمتلكُ إلى الآن، ولا أعرف كيف كانت ستبدو الحياة من دونكم بعد أن خرجتُ من السجن في الفترة التي ولّت. كنّا نُطبطبُ على ظهورنا، ونُسنّد أنفسنا للقيام عند خروجِ أيّ منّا من المعتقل، وبعدَ أن ابتعدَ الكثيرون، بعد أن ابتعدَ مَنْ كنّا نعتقدُ أنهم قريبون جداً.

«هؤلاء الذين أكتبُهم كانوا معي يومًا بيوم، لحظةً بلحظة، في الشهرين اللذين انقضيا لذلك أكتبُهم هنا »

■ **فادي الشيخ يوسف** لا دخلَ لي بأيّ ترتيبٍ هنا، والأشياءُ تأتي جُزافًا. أنا لا أمتلك صفةَ الكاتب فقط هنا، أو المُرتّب، لكنّكَ تبدو الآن أوّل الذين أكتبهم يا أيّها «الماسونيّ» الذكيّ، كيف تستطيع السيطرةَ على هذا الهدوء كلّه؟ كيف تسكُتُ كثيرًا؟ كيف تَعْقدُ حاجبيكَ وترتمي في عقلِكَ وتبقى قريبًا بعيدًا حزينًا ساكنًا؟ كيف استطعتَ أن تُمسكَ بالعصا من وسطها، ومن يمينها ويسارها؟ كيف لم تفقدْ أملاً يرجو منك أن تفقدَه؟ كيف كنتَ دائمًا ضميري الغريب الذي كان مرآةً لي بلا أيّ ارادةٍ منّي؟ أأنا مكشوفٌ كثيرًا مثلاً ولا أستطيعُ أن أجعلَ من نفسي داهيةً، أو شخصيّةً جدليّة؟ أهكذا كُنتَ دائمًا توضّبُني في حقيبتك الثقيلةِ ـ ذلك القلبِ الغريبِ؟ غريبٌ أنت يا رجل .. غريب

■ **محمد عنتر**. وأنتَ المغموسُ بالقلب مثلَ يرقةٍ شقيّة تحاول التشقّقَ إلى الحياة. أيّها الملعونُ بحبّي وحُبِّ من أحبّني. أيّها المسكونُ بالدفء. يا بالي وترياقي. يا داءً أُصبتُ به. يا دواءً لشقائي. يا رفيقَ المدينة وشوارعها يا غريبَ الأزقّةِ وحواريها يا فقيرًا من بُعدي، يا غنيّاً بقلبي. من أينَ لكَ كلّ هذا الشِعر يا ولد؟ من أنت، ها؟ من أين جئتَ إليّ؟ كيف استطعتَ أيّها السريعُ المُطيعُ الكريمُ، الحضنُ الثريّ، المُنتقدُ الناقدُ، المُنّقدُ حياةً، المنزوعُ شقاءً؟

يا ابن البلد يا با، أنا بحبّك.

■ **محمد الشيخ يوسف** أنت. أنتَ وحدَكَ، وحدَكَ لا سواكَ، أمنحُكَ وسامَ أبي وأخي وابني وسيّدي وصديقي ورفيقي. أنت وحدَكَ تعلمُ كيف أُحبُّك، لا كم أُحبُك أنت الضميرُ السابقُ لأوانه، الكَتفُ التي أستندُ إليها، الحضنُ الذي أنامُ فيه، اللونُ الذي أفضّله، وجبةُ الطعام اللذيذة التي تُمنحُ للمساجين كلّ ٣٠ يومًا. أنت أُقصوصةُ السماء، رائحةُ الملائكة، غريبُ المدينةِ والحكاية، شقيّ الذاكرةِ والكناية

أنتَ حدّوتي لأمّي وهي تجلو الصحون، فكيف لا أكونُ خائفًا من بُعدك؟ وأنا الأنانيُّ بكَ، فسامحْني.

■ **محمود المنيراوي**. آآآآآآآآآآه... أنا الآن أضحك. أضحكُ أضحك. أشعرُ بثعلبةِ الأشياء معك أشعرُ كما لو أنّنا معًا نفهمُ كلّ شيء، وأيّ شيء، نحن الممنوعون من محاولة الكذب على أنفسنا لأننا نعرفُنا جيّدًا. أنت أيها العليلُ الذي منحني إيّاه اللهُ في أول سفرٍ لي في حياتي أنت منفضةُ الشِعرِ لي. أنتَ العقلُ الغريبُ المُغبرُّ بوجهي بالمرآة: كلّما نظرتُ إليكَ رأيتُني، وكلّما نظرتُكَ بسطتُ يديَّ أقصى يميني ويساري، وأخذتُكَ في حُضني. أنتَ الذي يشكّل كلّ جدلي، وكلّ غرابتي. أنتَ مكواتي السحريّة التي أكوي بها أفكاري عندك. أنتَ يا أيها الذكيّ، ستكونُ شيئًا من اثنين: إما فسادًا عظيمًا لهذا العالم، وإما حدثًا جليّاً أصابهُ الله بهذه السنوات العجافِ التي طالت

■ **أحمد بعلوشة**. أتعْلم؟ أحيانًا عندما تمرُّ في عقلي مرّاً عابرًا، أشعرُ أني سأتبعُكَ، مثلَ قطّةٍ أسندتْ خوفها إلى ظلّ رجلٍ يمشي في الليل كي يُؤنسها. أنتَ مُؤنسي، الذي يُسقطُ عليّ راحةَ القلبِ والبال. الصاحبُ المُرادُ من هذه الحياة. الرجلُ الذي أجلسُ الآن معه بعدَ عشرين عامًا من الآن وهو يصيبني بالضحكِ الشديد، ونحنُ نقرأُ هذا النصّ، ونمرُّ على هذه الفقرة، ونساؤها المشغولات بتحضيرِ وجبة العشاء يتحدّثنَ عن ضجرهنّ منّا: كيف أنّنا نقضي الكثيرَ من الوقت معًا، ويُحضّرن المكائدَ التي تجعلنا على الأقل نختلف. لكنهنّ لا يعلمْنَ أبدًا أنني منحتُكَ من هذه اللحظة شرفَ دفني، وأعرفُ أنكَ ستمنحُني شرفَ الشقّة المُقابلة لشقّتِكَ بعد عشرين عامًا من الآن :)

■ **أنور الشيخ يوسف**. شوفْ، قبل أن أتحدّثَكَ هنا، اِعلمْ دائمًا وأبدًا أنني أُحبُّكَ جداً، وأعتزُّ بكَ أكثرَ من اعتزاز أبٍ بابنه، أو أخٍ بأخيه. أنتَ تعرفُ كيف أراكَ نقيّاً حقيقيّاً، كيفَ أنني مُتيقّنٌ أنكَ ستعملُ مديرًا يرتدي بذلةً سوداء و«غْرافة» زرقاء، وتُمسك بيدك اليُمنى حقيبتَكَ المقفولة برقمٍ سريّ هو ٢٥٨٠٨، وتغمزُ الصبايا اللواتي يعملنَ في البنكِ الذي تديره، وتجلسُ على مكتبكَ الفارهِ، وتفتح حاسوبَكَ وتقرأ هذا الذي أكتبه الآن وتقول: «يا تافه يا صفطاوي، والله طلعت صادق »

■ **حسام خضرة**. أنت . أنتَ أسوأ عِقاب قد يُمنح لشخصٍ روتينيّ. أنت غريبُ الأطوار، فطِنُ اللسان، عصيُّ الدمع، بليغُ الأحكام. أنتَ صاحبي «المسخرجي» الذي أخافَ الحكومات، ومَنْ سأنفيهِ إلى بلادٍ لا يَعْلمها إلا اللهُ وأنا، إذا صارت لي حكومةٌ يومًا في دولتنا. أنت اليدُ الممدودةُ إلى المساكين، الذي لا يستطيع النومَ وسواه لا يعرفُ النومَ من فقره. أنت القضيّةُ التي ترتدي كلَّ مظلومٍ في هذه المدينة. أنتَ حكمةٌ غابت عن الآلهة المُدّعاة، الساقطةِ من الكُتبِ البشريّة أنتَ سرُّ الماءِ في نصف البنطال الذي ترتديه ستتعب، لكنّك ستموتُ راضيًا أنك أطعمتَ مسكينًا، ورفعتَ الظلمَ عن امراةٍ، وخففتَ القلبَ لُمنتحرٍ.

❖ ❖ ❖

أعرفُ أنكم لستم بسطاءَ، ولستم مثلَ أيّ أحد وأعرفُ أنكم أعظمُ مجموعةٍ عملتُ معها يومًا وإذا أراد يومًا بلدٌ ما أن يستضيفكم فيها، فليَعلمْ أنّ خرابًا ما سيحلّ. أو إعمارًا عظيمًا!

تصبحونَ على غدٍ يا أصحابي :)

غزّة، ٢٠١١